



# الأديب و المَفَكَّرُ الرَّاحِل رَمَضانَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَأَوْنَد

## البنية التحتية والإتقان في دراسة العمل

نحن شعب حديث عهد بكل الأنشطة العلمية والفكرية، كما نحن شعب حديث عهد بالتكنولوجيا وما يترتب عليها من التقنيات الدقيقة . وهذا يعني أننا لا نزال نمارس نشاطنا على أسس قديمة تقليدية وما اكتسبناه من الإنجازات الحضارية المادية والأدبية الحديثة لا يزال دون الحد الأدنى المطلوب تحقيقه في كل نفضة من النهضات القومية.

والواقع أن هذه الظاهرة لم تتأكد عندي على الطريقة التي تتأكد بها عند المواطن العادي وحسب، بل عايشتها عن قرب خلال ممارستي للتعليم لعدد من السنين في بعض المعاهد اللبنانية في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات وحسب. بل عايشتها أيضا حين عملت لفترة قصيرة في بعض الإدارات التربوية المكلفة باعداد المناهج الدراسية.

### حملة الشهادات

في ضوء هذه المعاشية تبين لي أن أكثر حملة الشهادات ابتداء من المرحلة الثانوية وانتهاء بالمراحل الجامعية وفي مراحل المعاهد العليا هم فتيان وفتيات قد يحسنون القراءة والكتابة ولكنهم يفتقدون المهارة والجدية في المعرفة والاختصاص التي تشهد لهم بها الشهادات التي يحملونها.

لقد لاحظت فيما لاحظته أن البلدان العربية بعامة وبلدان الخليج بخاصة تفكر في الكم دون الكيف، كأنها لا تريد من المؤسسات التعليمية أن تخرج من فصولها غير شباب يحسن القراءة والكتابة. وبعضهم يتساهل مع فتيانهم وفتياتهم في منحهم العلامات وينزل بمستوى المجاميع في الشهادات التي يحملونها عند قبولهم في الجامعات بينما يطالب غير المواطنين والمواطنات بمجاميع عالية جدا كشرط لقبولهم في الجامعات والمعاهد العليا.

هذه الظاهرة لمستها لمس اليد، بل أن بعض المسؤولين في بلاد عربية بدأ يلمس خطورة هذه الظاهرة ويطالب بالتشدد في وضع العلامات ورفع مستوى المجاميع التي تشترط لقبول الطلاب والطالبات في الجامعات.

ولا عجب في أن تبرز الخطورة في هذه الظاهرة . فالطلاب والطالبات الذين لاحظوا استعداد الإدارات في الجامعات والمعاهد العليا لقبولهم رغم تدني المجاميع التي يحصلون عليها في المرحلة السابقة للدراسات العليا والجامعية أصبحوا يميلون إلى التكاسل وانتشرت بينهم روح الاستهتار ولم يعودوا يجدون أي رغبة في اتقان المناهج الدراسية وتحديد دراساتهم . وبذلك هبطت مستويات المعرفة في كل المراحل التعليمية وأصبحت الأمية الفكرية والعلمية بل والوظيفية السمة البارزة في الأجيال الجديدة.

وقد بلغ من عمق المأساة التعليمية التربوية أن رأيا عاما ثقيل الوزن أخذ يقاوم كل محاولة لتنفيذ سياسة التشدد إن في وضع المناهج المناسبة وإن في تقييم الامتحانات التي يمر بها الطلاب ولا سيما الذين ينهون منهم دراساتهم في المرحلة الثانوية. والمدهش أن هذا النحو من السياسة التعليمية التربوية بقي قائما حتى اليوم في كثير من المؤسسات الرسمية وغير الرسمية رغم ما يلزمه المسؤولين في هذا القطاع من خطورة النتائج المترتبة عليه.

### شروط صعبة

قلت يوما لمسؤول كبير في دولة عربية ناشئة : أن الجامعات في أوروبا وأميركا بخاصة وبقية البلدان المتقدمة بعامة تفرض على أبناء بلادها وبناتها شروطا صعبة وتتشدد تشددا بالغا في وضع العلامات على نتائج أعمالهم لأنها تعلم بأن المتخرجين من صفوفها سيكونون يوما المجموعات القيادية في مختلف ميادين الإنتاج الوطني. ولما كان الحفاظ على امتيازات بلادها في ميادين العلم والفكر والتكنولوجيا والتقنيات الماهرة المختلفة مشروطاً بإخراج أجيال متقنة للدراسة وجودة في الأداء فإن احساس القياديين التربويين بالواجب الوطني يفرض عليهم أن يتخذوا كل الاحتياطات لتنمية روح الإبداع وتشجيع الإنتاج الجيد وتغذية القدرات الفنية عند الأفاضل من الفتيان والفتيات .... والجامعات الأجنبية هذه هي نفسها التي لا تتردد في التساهل مع الطلاب الأجانب الذين يلتحقون بها على أساس أنهم لم تكتب لهم قيادة المسيرة القومية في المستقبل بل سيمارسون عملهم المستقبلي في بلادهم الخاصة .

وطبيعي أن هذه الخطة ليست خطة كريمة بالنسبة للأجنبي ولكنها خطة سليمة جدا ومثمرة جدا بالنسبة للوطني. ولعلنا لا نحتاج إلى القول : بأن البلدان المتقدمة تضاعف من سعة المسافة العلمية والفكرية والتقنية بينها وبين بلاد كبلادنا مما يضاعف العقبات والعراقيل أمام بلادنا في مضامير التسابق نحو المستقبل.

وقد تلقى المسؤول الكبير ما أوردته بابتسامة كانت غامضة المعنى بالنسبة إليّ . لكنه بحركة منه شجعتني على متابعة مناقشة هذا الموضوع . وهنا أردفت قائلاً له : أن كل أمة ذات قدرات علمية وتقنية كبيرة تتمتع ببنية تحتية تتمثل في مجالس بحوث ومخابر ومصانع وورشات عمل مختلفة بالإضافة إلى مستوى عام مرتفع في كل ميادين المعرفة . فإذا فرضنا أن طالبا جامعيا في هذه الأمة قد تخرج من الجامعة أو من معهد عال وهو غير معد الإعداد الكافي لممارسة نشاطه العلمي أو التقني فإن في المجموعة من مجالس البحوث والمخابر والمصانع والورش المنتشرة في بلاده ما يمكنه من تجديد أدائه وتوسيع معرفته، فإذا لم يفعل فإن مصيره هو اخراجه من ميدان العمل أو بقاءه في الدرك الأسفل من مدارج العمل والإنتاج . أما الطالب المتخرج من جامعات بلدكم فإنه بسبب من فقدان البنية التحتية وتخلف الوسط العلمي سيتجنب العمل في ميدان اختصاصه وسيختار أسهل الوظائف بحيث يبقى التخلف قائما في كل ميادين المعرفة. فلا الطبيب يجد أمامه مدادا من الخبرات الكافية ولا المهندس في كل فروع الهندسة يقع على ما يساعده في تحسين خبراته. وكذلك الشأن في كل ميادين المعرفة الأخرى . هذا النوع من الخريجين سيزاحم غيره في الحصول على وظيفة ادارية أو كتابية مما يفقد معها بمرور الأيام حتى القليل الذي اكتسبه من الخبرات في الجامعة.

وتابعت بعد ذلك كلامي قائلاً : أنت تعلم أن بلداً كاليابان بدأ نهضته الحديثة منذ مائة ونيّف فقط أي ابتداء من العام ١٨٦٨ م في عهد الإمبراطور الياباني مييجي . وتعلم أيضا : أن اليابان قد حققت قفزة علمية واسعة جدا ولا سيما بعد كارثة الحرب العالمية الثانية التي قضت تقريبا على ثمانين في المائة من قدراتها الإنتاجية . وهي اليوم بدأت لا بمزاحمة الولايات المتحدة الاميركية وحسب بل أخذت تجاوزهها في ميدان ما يسمى اليوم " عصر ما بعد الصناعة " . وقد بلغت اليابان درجة من التقدم الاقتصادي والخبرات العلمية بحيث أن الدوائر الاقتصادية والعلمية في أوروبا وأميركا ، أعلنت حالة الحصار لمقاومة المد الياباني الذي يكاد يكتسح أسواق العالم.

## المعرفة ثم المعرفة

ومن الأخبار الاقتصادية العلمية الأخيرة القادمة من اليابان أن المؤسسات الاقتصادية العلمية الأساسية فيها اخذت تضاعف من ميزانيات الإعداد الفني والتقني عند مهندسيها وعلمائها بل وعمالها أيضاً.

إن ثورة اقتصادية علمية تجري اليوم في تلك البلاد حتى أن شركة كشركة تويوتا للسيارات تملك مصانع تتولى العمل فيها أجهزة الروبوت " الإنسان الآلي " قد خصصت في كل عام من الأعوام القليلة الماضية الجزء الأكبر من ميزانياتها لإعداد العاملين فيها اعدادا علميا وفنيا لمواجهة متطلبات المستقبل الذي ينتشر فيه استخدام الكمبيوترات المتطورة.

ومن الإحصاءات التي جاءتنا من تلك البلاد نعلم أن الانسان الآلي مثلا قد أخذ ينتشر انتشارا واسعا في المؤسسات الصناعية والأعمال المكتبية والإدارية.

ولكي ندرك حجم هذا التطور نعرض مقارنة بين الدول التالية فيما يتعلق بعدد أجهزة الروبوت التي ضاعفت الإنتاج بنفقات أقل . وقبل أن نورد الإحصاء المقارن أذكر ما ورد في كتاب التحدي العالمي للسيد جان جاك شرايبر من أن العامل البشري يستطيع أن ينتج في العام سبع سيارات بينما جهاز الروبوت ينتج ٣٥ سيارة . في ضوء هذه الواقعة أورد الاحصاءات التالية:

- ١ ) اليابان كانت تملك في مصانعها عام ١٩٨٠ م سبعة وستين ألف انسان آلي تعمل كلها في الصناعة والإدارة أو المكاتب.
- ٢ ) الولايات المتحدة كانت تملك في الفترة نفسها ٣٦٠٠ انسان آلي.
- ٣ ) ألمانيا الغربية كانت تملك في الفترة نفسها ٣٢٠٠ انسان آلي .
- ٤ ) فرنسا كانت تملك في الفترة نفسها ٣١٨ انسان آلي .
- ٥ ) ايطاليا كانت تملك في الفترة نفسها ١١٨ انسان آلي .
- ٦ ) بريطانيا كانت تملك في الفترة نفسها ٣٠٠ انسان آلي.

كل هذا يحدث في الوقت الذي تتمتع فيه اليابان وغير اليابان من البلدان المتقدمة ببنية تحتية راسخة واسعة القاعدة بحيث تكون قادرة على استقبال الخريجين الجدد من الجامعات وتزويدهم بالمزيد من الخبرات. يضاف إلى ما سبق تشدد الجامعات هناك في مراقبة مستويات الطلاب وتطبيق أشد الاجراءات في تقويم قدراتهم وكفاءاتهم.

إن نظرة شاملة سريعة لما يجري في داخل البلاد العربية وما يجري في البلدان المتقدمة تكشف لنا الهوة الواسعة التي تفصلنا وتحدد لنا المسافات الطويلة جدا التي يجب أن نجتازها للحاق بعالم ما بعد الصناعة بل للحاق بالمرحلة العلمية والصناعية في القرن التاسع عشر.

وانتهت المقابلة مع المسؤول العربي الكبير وأنا واثق بأنه قد تأثر بما سمع. لكن قضية النهضة في بلادنا العربية لا يرتبط مصيرها بمسؤول واحد مهما عظم شأنه بل يرتبط بجملة الكفاءات والخبرات والفلسفات التعليمية والوعي العام في البلاد.

صحيح أن مشوار المستقبل طويل لكن رحلة الألف ميل تبدأ كما يقال بالميل الأول بل بالخطوة الأولى. المهم هو الابتداء بوضع حد للتسيب واتخاذ الاجراءات الجادة والقاسية الى حد بعيد في التعامل مع أفراد الأجيال الطالعة. والتوصل إلى تحقيق هذه البداية يحتاج إلى جهود اعلامية واسعة جدا إلى جانب الحزم والحسم في مواجهة أي معارضة تتبع من رغبة بعضهم في ارضاء قطاعات من الرأي العام على حساب خطط التقدم والبناء.

### الحاجة الاستراتيجية

إن حاجتنا إلى تكوين بنية راسخة عريضة القاعدة في بلادنا العربية بعامه ولا سيما في الأقطار حديثة العهد بالسيادة هي حاجة استراتيجية أساسية تهون معها كل التضحيات وتسهل معها كل المحاولات . وهي وإن لم تكن في البداية ذات ريع مادي مباشر إلا أنها بعد فترة من التقشف ستتحول إلى ينبوع لا ينضب من الخير والثراء والقوة .

ولعل أخطر ما يجب أن يتخذ من الإجراءات هو الإجراء السياسي . إن القرار السياسي الذي يرافقه عزم على مواجهة كل اعتراض هو المرحلة الفاصلة بين ماضٍ أعزل خالي من كل مقدرات التقدم وبين مستقبل متسلح بكل أسلحة الحضارة المادية والأدبية . ولا ننسى أن الحزم يعني قوة في الأخلاق واستعدادا للتضحية وشجاعة في المواجهة . وهو يعني أيضا خوض سلسلة من المعارك الفاصلة مع قوى الرجعية والتخلف. ويزيد في خطورة القرار السياسي أن على القيادات العربية أن تدرك بأن مصير الوجود العربي هو مصير مشترك لأن السوق العربية يجب أن تكون سوقا واحدة والثقل البشري هو الثقل العربي العام.

فإذا توصلت القيادات العربية إلى اتخاذ قرارها السياسي المشترك للقيام بمثل هذه الخطوة الرائدة سهلت المهمة . وإذا لم يتم الاتفاق العام فإن هذا لا يمنع من السعي إلى اتفاق جزئي.

ولعل مجلس التعاون لدول الخليج العربية أن يكون النواة الاقليمية العربية الأولى الصالحة لاستقطاب جانب من القدرات مما قد يجعل منها نموذجاً صالحاً قد يسير على أثره الآخرون ممن لا يشاركون في تحقيق هذه المسيرة.

وخلاصة القول : أنه لا أمل في تحقيق النهضة العلمية التربوية المطلوبة إلا بالحصول على البنية التحتية التي تحققها فلسفة تربوية تعليمية تقنم كل الحواجز . إنها قضية الوجود الحضاري أو العدم الحضاري. وبتعبير آخر قضية أن نكون أو لا نكون. وملاك الأمر كله : المعرفة ثم المعرفة والإتقان ثم الإتقان ولو بالقوة.